

تفسير ابن كثير

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ^ط أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

ولهذا قال تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) ولن : لنفي التأييد أي : ولن تفعلوا ذلك

أبدا . وهذه - أيضا - معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدا

وكذلك وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن ، وأنى يتأتى ذلك لأحد

، والقرآن كلام الله خالق كل شيء ؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟ !ومن

تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة

المعنى ، قال الله تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) [

هود : 1] ، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف ، فكل من لفظه

ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت

طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال : (وتمت كلمة

ربك صدقا وعدلا) [الأنعام : 115] أي : صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام ،

فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في

أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل في الشعر : إن أعذبه أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر ، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع ، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئا إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيها بيتا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته . وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكررت حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن ، كما قال في الترغيب : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) [السجدة : 17] وقال : (وفيها ما تشتهيهِ الأنفس

وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون) [الزخرف : 71] ، وقال في الترهيب : (أفأمنت أن
يخسف بكم جانب البر) [الإسراء : 68] ، (أأمنت من في السماء أن يخسف بكم
الأرض فإذا هي تمور أم أمنت من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف
نذير) [الملك : 16 ، 17] وقال في الزجر : (فكلأ أخذنا بذنبه) [العنكبوت : 40] ،
وقال في الوعظ : (أفأريت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم
ما كانوا يمتعون) [الشعراء : 205 - 207] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة
والحلاوة ، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي ، اشتملت على الأمر بكل
معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء ؛ كما قال ابن
مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن : (يا أيها الذين آمنوا)
فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه . ولهذا قال تعالى : (يأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم
والأغلال التي كانت عليهم) الآية [الأعراف : 157] ، وإن جاءت الآيات في وصف
المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من

النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأذرت ؛ ودعت إلى فعل
الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى ، وثبتت على
الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس
الشیطان الرجيم .ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله
صلی الله علیه وسلم ، قال : ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن
عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا
يوم القيامة لفظ مسلم . وقوله : وإنما كان الذي أوتيته وحيا أي : الذي اختصت به من
بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست
معجزة [عند كثير من العلماء] والله أعلم . وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة
على نبوته ، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ، والله الحمد والمنة . [وقد قرر
بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصوفية ، فقال :
إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته ،
فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك

مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله ؛ لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته ، كما قرنا ، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر (وإنا أعطيناك الكوثر) [وقوله تعالى : (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) أما الوقود ، بفتح الواو ، فهو ما يلقي في النار لإضرارها كالحطب ونحوه ، كما قال : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) [الجن : 15] وقال تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) [الأنبياء : 98] . والمراد بالحجارة هاهنا : هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرا إذا حميت ، أجازنا الله منها . قال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، في قوله تعالى : (وقودها الناس والحجارة) قال : هي حجارة من كبريت ، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض في السماء الدنيا ، يعدها للكافرين . رواه ابن جرير ، وهذا لفظه . وابن أبي حاتم ، والحاكم في

مستدركه وقال : على شرط الشيخين . وقال السدي في تفسيره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة : (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود ، يعذبون به مع النار . وقال مجاهد : حجارة من كبريت أنتن من الجيفة . وقال أبو جعفر محمد بن علي : [هي] حجارة من كبريت . وقال ابن جريج : حجارة من كبريت أسود في النار ، وقال لي عمرو بن دينار : أصلب من هذه الحجارة وأعظم . [وقيل : المراد بها : حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية [الأنبياء : 98] ، حكاها القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول ، قال : لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى ، وهذا الذي قاله ليس بقوي ، وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة - أيضا - مشاهد ، وهذا الجص يكون أحجارا فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك . وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار

وتحرقها . وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها ، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال : (كلما خبت زدنهم سعيرا) [الإسراء : 97] . وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعربها النار لتحوى ويشتد لهبها قال : ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها ، قال : وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل مؤذ في النار وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبي : وقد فسر بمعنيين ، أحدهما : أن كل من آذى الناس دخل النار ، والآخر : كل ما يؤذي فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك [وقوله تعالى : (أعدت للكافرين) الأظهر أن الضمير في (أعدت) عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده على الحجارة ، كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى ، لأنهما متلازمان . و (أعدت) أي : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله ، كما قال [محمد] بن إسحاق ، عن محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (أعدت للكافرين) أي : لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله : (أعدت) أي : أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في

ذلك منها : تحاجت الجنة والنار ومنها : استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضي

بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، وحديث ابن مسعود سمعنا

وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا حجر ألقي به من شفير

جهنم منذ سبعين سنة ، الآن وصل إلى قعرها وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف

وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى ، وقد خالفت المعتزلة

بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس . تنبيه ينبغي الوقوف

عليه : قوله : (فأتوا بسورة من مثله) وقوله في سورة يونس : (بسورة مثله) [يونس : 38

[يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة ؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم

كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه ،

فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا

وخلفا ، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره : فإن قيل : قوله : (فأتوا

بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر ، و (قل يا أيها الكافرون) ونحن

نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن . فإن قلتم : إن الإتيان بمثل هذه

السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين : قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن كذلك ، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا ، فعلى التقديرين يحصل المعجز ، هذا لفظه بحروفه . والصواب : أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعي ، رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم : (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [سورة العصر] . وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي ؟ فقال : (والعصر إن الإنسان لفي خسر) ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل علي مثلها ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقر فقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنني لأعلم أنك تكذب .